الفصل الأول

المصطلحات العلمية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

المصطلحات العلمية

يتضمن هذا الفصل عرضاً موجزاً للمصطلحات العلمية المتقاربة من بعضها البعض عند استخدامها في الدراسات الاجتماعية عامة والبحث الاجتماعي بشكل خاص وهي:

أولاً: البحث الاجتماعي Social Research:

يتحدر البحث الاجتماعي، بالرغم من كونه ظاهرة خاصة بالعالم المعاصر، من التزاوج بين تقاليد قديمة أوروبية: تقاليد النظرية الاجتماعية التي تعود إلى (أفلاطون) وتقاليد البحث التجريبي الذي ينتمي إلى القرن السابع عشر.

ففي اليونان، حيث نشأت النظرية الاجتماعية، كان كل ما يتعلق بالبحث الاجتماعي مجهولاً، بالرغم من أن (أرسطو) جمع المعلومات حول الأنظمة السياسية للمدن اليونانية، وحصل (بوليب) على بعض الاستيضاحات حول صعود الإمبراطورية الرومانية عن طريق سؤال الشهود. ومع أن العصر الوسيط وعصر النهضة كانا غنيين بالنظرية فلم يتم القيام بأي جمع منظم للأحداث الاجتماعية بهدف التفكير بها.

وقد اكتفى المنظرون الحديثون الأوائل إما بالأبحاث في المكتبات وبمصادر الدرجة الثانية مثل (بودان) و(مونتسكيو) وإما بالتأكيد، مثل (لوك) و(روسو)، بأن المعارف الشائعة كانت تكفي لتزويدهم بكل ما كانوا يرغبون في معرفته. مع ذلك، وجدت بعض الاستثناءات النادرة، فقد استعمل (آدم سميث) الإحصاءات بكثرة في كتابه "ثروة الأمم". وجمع (مالتوس) كمية كبيرة من المعطيات الديموغرافية الوافدة من العالم كله ونشرها في الطبعات الأخيرة من كتابه "مقالة عن السكان" من أجل دعم وجهة نظره.

ولقد أعلن (كونت) في أوج مجده، عزمه على عدم قراءة أي كتب إلا كتبه وكان يعد ذلك من ضرورات (الوقاية الفكرية). أما دراسة (أنجلز) حول "وضع الطبقات العاملة في إنكلترا عام ١٨٤٤" فقد عدت بحثاً تجريبياً جديراً بالملاحظة، ولكنها بقيت وحيدة ودون ورثة في الأدب الماركسي.

أما (توكفيل) فقد كان ملاحظاً عبقرياً للمجتمع. لكن مناهجه كانت تلك التي يعتمدها الصحفي. و(سبنسر) الذي جمع وصنف مجموعة وثائقية أثنوغرافية واسعة لم يقم بنفسه أبداً بتحقيق ميداني.

أما المؤسسون الرئيسون لعلم الاجتماع الحديث فلم يلتزموا كلهم بالبحث التجريبي. و(زيمل) مثلاً لم يكن يعيره أي انتباه، وقد أوضح تحليلاته بالاستناد إلى أفكاره فقط. أما (بارتيو) و(فيبر) فقد كانا رجلين ذوي معرفة متفوقة. فـ(بارتيو) كان لديه اطلاع خارق على الوثائق اليونانية، واللاتينية والعبرية، التي تعود إلى العهد القديم والعصر الوسيط.

وعلم (فيبر) التاريخي كان يشتمل على التفاصيل الأكثر دقة للتنظيم الاجتماعي لكل حضارة أبقت بعض الشواهد المكتوبة. وكلاهما شجعا البحث الميداني، ولكنهما مارسا منه القليل.

واستناداً إلى ما سبق إن البحث الاجتماعي هو عملية تقصي الوقائع والظواهر والمشكلات الاجتماعية بطريقة منظمة. ويجيب البحث الاجتماعي عن التساؤلات التي يضعها الباحث منذ البداية. ويعتمد تصميمه وتنفيذه على قواعد المنهج العلمي وتطبيقها في دراسة مشكلة معينة.

إن دراسات (بارتيو) حول توزيع المداخيل تنتمي على الأرجح إلى الجزء الاقتصادي من عمله وليس للجزء السوسيولوجي منه. وعمل (فيبر) الذي يقوم على الملاحظة، حول مصنع في (بروسيا الشرقية) يملكه جده يمثل حشرية تهتم بسير الحياة فيه أكثر منه عملاً مهما.

إن دراسة (دوركايم) عن "الانتحار" المنشورة عام (١٨٩٥) هي المثال الأكمل عن البحث الحديث. فالموضوع هو مشكلة اجتماعية وهو مفيد بحد ذاته، وقد أخذت المعطيات من المحفوظات الوطنية ومن تحقيقات سابقة، ونجد في هذه المعطيات تحليلاً مبتكراً للتقارير الرسمية غير المنشورة. فالقسم النظري موسع بصورة خاصة، والفائدة النظرية للكاتب تجاوزت مسألة الانتحار وحدها. والنظريات السابقة ممتحنة بانتباه، وإطار البحث محدد بوضوح، أما مدلول إحصائيات الانتحار فهو مدروس بكل تشعباته؛ والفرضيات جرى تعديلها وتحسينها بعد مجابهتها مع المعطيات، وقد اتخذت صياغة جديدة عند نهاية العمل.

ولقد حدد (ويلبرت ميلر)[1] خطوات إعداد البحث الاجتماعي بعشر خطوات أساسية تمر بها عملية تصميم البحث على النحو الآتي:

أ- اختيار مشكلة سوسيولوجية وتعريفها.

ب- وصف العلاقة بين هذه المشكلة بالذات والإطار النظري الأشمل.

ج- صياغة الفروض المبدئية.

د- التصميم التجريبي للبحث.

هـ- تحديد العينات.

و- اختيار أدوات جمع البيانات.

ز- إعداد دليل للعمل.

ح- تحليل النتائج.

---

(1) Miller. P. G.. Handbook Research Design and Social Measurements David McKax. 1964.

ورد في كتاب د. محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٩م، ص٤٤٨.

ط- تفسير النتائج.

ي- كتابة التقرير ونشره.

وهكذا يمر البحث بمرحلتين أساسيتين هما: وضع الخطة التي تحتاجها الدراسة، ثم تنفيذ هذه الخطة عملياً.

ثانياً: بحوث العمليات: Operations Research

بحوث العمليات هي الوسائل الأولية المتاحة لتحديد وحل المشكلات المتعلقة بالتخطيط والتنسيق، والتدريب، والإشراف والتقييم.

وهي عملية مستمرة تتألف من خمس خطوات أساسية هي:

١) تحديد وتشخيص المشكلة.

٢) اختيار الإستراتيجية.

٣) تجريب هذه الإستراتيجية وتقييمها.

٤) نشر المعلومات.

٥) استخدام المعلومات.

وغالباً ما تستخدم بحوث العمليات في ميدان الصحة وتنظيم الأسرة، حيث تهتم بالأنشطة اليومية للبرامج المتعلقة بتنظيم الأسرة التي تخضع لإشراف مديري البرامج مثل، التدريب، والإعلام، والتعليم، والخدمات الطبية، ونظم تقديم الخدمة الريفية.

كما تهتم بحوث العمليات بالمشكلات التي تؤثر على جانب العرض الخاص بالبرامج وليس جانب الطلب. ويعني ذلك أنها تهتم بالمشكلات المتعلقة بأسلوب تقديم الخدمة والبحث عن حلولها، أو بلغة البحث المتغيرات التي يمكن التأثير عليها من خلال العملية الإدارية.

ومـن أهـم أهداف بحـوث العمليـات إمداد مديـري البرامـج وصانعـي السياسات بالمعلومـات التـي يحتاجـون إليها لتحسـين الأنشطـة المتعلقة بتقديم الخدمـة وتخطيط الأنشطـة المستقبلية. كما تسعى إلى إيجاد حلول عمليـة للمشكلات، وكذلك بدلائل قابلة للتطبيـق لطـرق التشغيل غير المرضية، حيث تقارن بين أسلـوب تقديم خدمة ما بأسلوب آخر من حيث التأثير والتكلفة والفاعلية.

ويمكن تصنيف دراسات وبحوث العمليات في ثلاثة أنواع هي:

أ- الدراسات الاستكشافية أو التشخيصية:

تتسـم هذه الدراسات بأنهـا ذات دراسات استرجاعيـة أو استعراضية. ويتم اللجوء إلى هـذا النوع مـن الدراسات حينما يعاني البرنامج من وجود مشكلات ذات طبيعة غير معروفـة أو غـير واضحة. وهنا يتمثـل الجانب الرئيس في هـذه الدراسات في البحث عن التغيرات التي يمكن معالجتها من خلال أسلوب البرامج.

ب- دراسات التدخل الميداني:

تعتمـد هـذه الدراسات علـى تجريب مداخـل أو أساليب جديدة للتغلـب على مشكلة البرنامـج. ففـي كثـير في المواقف تكـون العوامـل المسؤولة عـن وجود مشكلـة البرنامج معروفة،ولكـن أفضـل الوسائل للتغلب على هذه المشكلة من حيـث الكفاءة والتكلفة تكون غـير معروفـة، ومن ثم فإن دراسات التدخل الميداني تعتمـد على تجريب أو اختيار طرق جديدة أو نماذج جديدة لتقديم الخدمة. وتتسم هذه الدراسات بأنها دراسات مستقبلية وممتدة، وتستخدم عادة أسلوب البحث التجريبي أو شبه التجريبي.

ج- دراسات التقييم:

تستخـدم في دراسات وفحص أثر أنشطة البرنامج بصورة استرجاعية، أي أن بعض الدراسـات تتـم ولسنـوات عدة دون إجـراء تقييم لهـا، وفي هذه الحالة يمكـن أن تكون دراسات التقييم أسلوباً قيماً من أساليب بحوث العمليات.

ومـن المهم هنا أن نشير إلى أن هذه الأنواع الثلاثة من بحوث العمليات ليست جامعة مانعة بمعنى غالباً ما يبدأ أحد بحوث العمليات بدراسة استكشافية أو تشخيصية لتحديد المتغيرات الرئيسة المهمة، ثم يلي ذلك إجراء تدخل ميداني يتبعه عمل تقييم لتحديد أثر هذا التدخل الميداني.

ثالثاً: علاقة المجتمع بالبحث الاجتماعي:

حيث تتبدى خصائص المجتمع الإنساني المتغيرة باستمرار، واستمرارية هذا التغير لا تأخذ السرعة نفسها مع أقسام المجتمع كافة، ولا حتى التوقيت الزمني نفسه، فبعض أقسامه تتغير أسرع من الأقسام الأخرى، وقد يحصل تغير لقسم معين في الوقت الحاضر، ولا يحصل للقسم الآخر في الوقت نفسه، فالنظام السياسي مثلاً يتغير أسرع من النظام الديني، وإطار تغيير النظام السياسي يكون أوسع وأسرع من النظام القيمي والاقتصادي.

إن عدم الانسجام في التغير، وعدم التوافق يجسدان مشكلات اجتماعية وحضارية متعددة، وهذه أولى اهتمامات علم الاجتماع من أجل التعرف على أسباب هذه المشكلات ونتائجها، لكي يتمكن من وضع حلول ناجعة لها، وفي هذا الخصوص يمكن أن نقسم اهتمام الباحث الاجتماعي إلى ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول:

يهتم بتشخيص مسببات المشكلات كتشخيص أسباب مشكلة الهجرة الريفية (الهجرة من الريف إلى المدينة).

الاتجاه الثاني:

يهتم بتقديم الحلول للمشكلات دون الاهتمام بالتشخيص والمسببات، كتقديم اقتراحات بمثابة حلول لمشكلة (تعاطي المخدرات في المجتمع) مثلاً. أو مشكلة (اللامبالاة وعدم المشاركة الاجتماعية في المجتمع) أو غير ذلك.

الاتجاه الثالث:

يشخص الأسباب ويقدم الحلول المناسبة لها في آن واحد، ويمكن أن تكون الأمثلة السابقة بتطبيق معطيات هذا الاتجاه، أمثلة صحيحة على هذا الاتجاه، ونضيف أمثلة أخرى مثل:

دراسة (أسباب الطلاق في المجتمع) ودراسة (أسباب انحراف الأحداث في المجتمع)، ودراسة (أسباب ارتفاع السرقة في المجتمع) وغير ذلك من الأمثلة الأخرى، وهنا يقوم الباحث بالدراسة التشخيصية للأسباب، ويقدم في ضوء ذلك الحلول المناسبة.

ويمكن في ضوء ذلك أن نقف عند أنواع من المشكلات التي يتناولها الباحث الاجتماعي والبحث الاجتماعي أيضاً، وهي:

١- مشكلات الحياة الاجتماعية مثل:

الجريمة، الانحراف، التسول، الفقر، الطلاق، الإدمان على المخدرات، السرقة، التفكك الأسري... إلخ.

٢- مشكلات ترتبط بالإطار الفلسفي الاجتماعي العام مثل:

دراسة تاريخ حياة مجتمع من المجتمعات، أو دراسة المجتمعات البدائية بخصائصها التي تختلف عن خصائص المجتمعات الحديثة، أو دراسة مشكلة الرأسمالية، أو مشكلة الطبقات الاجتماعية، وأزمة الماركسية أو أزمة المجتمع الاشتراكي...إلخ. أي المشكلات التي ترتبط بشكل عام بالفكر الاجتماعي قبل ارتباطها بالفرد والحياة الاجتماعية اليومية.

٣- مشكلات ترتبط بالعلم الاجتماعي ذاته (علم الاجتماع)

وهنا تطرح نظريات علم الاجتماع مثلاً على الاختبار في ميدان اجتماعي ما، أو تطبيق إحدى تقانات البحث الاجتماعي أو غير ذلك.

٤- مشكلات ترتبط بالنظم الاجتماعية مثل:

المؤسسات السياسية (الأحزاب) والمؤسسات التربوية (المدرسة والجامعة والمكتبات... إلخ) وهنا يتوجه الباحث إلى البحث في مشكلات هذه النظم، للتعرف على تركيبها (بنيتها) وارتباط الأفراد فيها، وإسهامها في تأمين الحاجات وغيرها.

إضافة إلى مشكلات أخرى ترتبط بالمجتمعات والظواهر الاجتماعية ضمن هذه المجتمعات.

إن دراسة كل هذه المشكلات على اختلاف أنواعها هي من اهتمامات الباحث الاجتماعي، وهي في موضوعات البحث الاجتماعي بشكل عام.

غير أن الدراسة الموضوعية لهذه المشكلات تقوم على جملة من الخطوات العلمية المنهجية تجسد ما يسمى بالبحث الاجتماعي.